مُحَمَّدُ الصَّغِيرُ

كُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَغِيْراً. لا أَفْقَهُ شَيْئاً مِمَّا كَانَ يَجْرِي فِي الخَفَاءِ، وَ لَكِنِّي كُنْتُ أَجِدُ أَبِي – رَحِمَهُ اللهُ – يَضْطَرِبُ ، وَ يَصْفَرُّ لَوْنُهُ، كُلَّمَا عُدْتُ مِنَ المَدْرَسَةِ فَتَلَوتُ عَلَيْهِ مَا حَفِظْتُ مِنَ الْكِتَابِ المُقَدَّسِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا تَعَلَّمْتُ مِنَ اللُّغَةِ الإِسْبَانِيَّةِ ، ثُمَّ يَتْرُكُنِي وَ يَمْضِي إِلَى غُرْفَتِهِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَقْصَى الدَّارِ ، وَالَّتِي لَمْ يَكُنْ يَأْذَنُ لِأَحَدٍ بِالدُّنُوِّ مِنْ بَابِهِ، فَيَلْبَثُ فِيْهَا سَاعَاتٍ طَوِيلَةً ، لا أَدْرِي مَا يَصْنَعُ فِيْهَا ، وَكُنْتُ أرى وَالِدَيَّ يَبْتَعِدَانِ عَنِّي ، وَ يَتكَلَّمَانِ هَمْساً بِلُغَةٍ غَيْرِ اللُّغَةِ الإِسْبَانِيَّةِ، لا أعْرِفُهَا وَ لا أفْهَمُهَا ، فَإِذَا دَنَوْتُ مِنْهُمَا قَطَعَاالْحَدِيثَ، وَحَوَّلاهُ، وَ أَخَذَا يَتَكَلَّمَانِ بِالإِسْبَانِيَّةِ، فَأَعْجَبُ وَأَتَأَلَّمُ.وَاسْتَمَرَّالْحَالُ كَذَلِكَ حَتَّى جَاءَتْ إِحْدَى لَيَالِي عِيدِ الفَصْحِ ، كَانَتْ فِيهَا غِرْنَاطَةُ غَارِقَةً فِي العِطْرِ وَ النُّورِ . دَعَانِي أَبِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَ أَهْلُ الدَّارِ كُلُّهُمْ نِيَامٌ ،فَقَادَنِي صَامِتاً إِلى غُرْفَتِهِ ، وَ قَالَ لِي بِصَوْتٍ خَافِتٍ :

يَا بُنَيَّ ، إِنَّكَ الآنَ فِي العَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِكَ ، وَقَدْ صِرْتَ رَجُلاً، وَ إِنِّي سَأُطْلِعُكَ عَلَى السِّرِّ الَّذِي كَتَمْتُـهُ عَنْكَ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَن تَحْتَفِظَ بِهِ فِي صَدْرِكَ، وَ تَحْبِسَهُ عَنْ أُمِّكَ وَ أَهْلِكَ وَ أَصْحَابِكَ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ؟

يَابُنَيَّ؛ إِنَّ إِشَارَةً مِنْكَ وَاحِدَةً إِلَى هَذَا السِّرِّ تُعَرِّضُ جِسْمَ أَبِيكَ إِلى عَذَابِ "دِيوَانِ التَّفْتِيشِ"فَلَمَّا سَمِعْتُ اسْمَ دِيوَانِ التَّفْتِيْشِ ارْتَجَفْتُ مِنْ مَفْرَقِ رَأْسِي إِلَى أَخْمَصِ قَدَمِي ، لِأَنِّي كُنْتُ أَرَى ضَحَايَاهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَ أَنَا غَادٍ إِلَى المَدْرَسَةِ ، فَسَكَتُّ وَلَمْ أُجِبْ.

- وَ قَالَ لِي أَبِي : مَا لَكَ لا تُجِيبُ ! أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْتُمَ مَا سَأَقُولُهُ لَكَ ؟
- قُلْتُ : نَعَمْ
- قَالَ: تَكْتُمُهُ حَتَّى عَنْ أُمِّكَ وَ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْكَ؟
- قُلْتُ : نَعَمْ
- قَالَ : اْقْتَرِبْ مِنِّي.

فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، فَأَشَارَ إِلَى الكِتَابِ الَّذِي كَانَ عَلَى الرَّفِّ ، وَقَالَ:

- أَتَعْرِفُ هَذَا الْكِتَابَ يَا بُنَيَّ ؟

قُلْتُ : لا

- هَذَا كِتَابُ الله

- قُلْتُ : الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ الَّذِي جَاءَ بِهِ يَسُوعُ بْنُ الله!

فَاضْطَرَبَ وَ قَالَ:

- كَلَّا ، هَذَا هُوَ القُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ الوَاحِدُ الأَحَدُ ، وَالفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، عَلَى أَفْضَلِ مَخْلُوقَاتِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله النَّبِيِّ العَرَبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ.

فَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ مِنَ الدَّهْشَةِ ، وَ لَمْ أَكَدْ أَفْهَمُ شَيْئاً.

نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، نَحْنُ العَرَبَ المُسْلِمُونَ...

فَلَمْ أَمْلِكْ لِسَانِيَ مِنَ الدَّهْشَةِ وَ العَجَبِ وَ الخَوْفِ وَ صِحْتُ بِهِ:

- مَاذَا ؟ نَحْنُ ؟ ... العَرَبَ المُسْلِمُونَ!

- قَالَ : نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي سَأُفْضِي بِهِ إِلَيْكَ...

هَذَا هُوَ السِّرُّ يَا بُنَيَّ فَاكْتُمْهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ حَيَاةَ أَبِيكَ مُعَلَّقَةٌ بِشَفَتَيْكَ....

كَانَ خَوْفُ أَبِي مِنْ أَنْ أَزِلَّ فَأُفْشِيَ السِّرَّ، لا يُفَارِقُهُ أَبَداً، وَكَانَ يَمْتَحِنُنِي فَيَدُسُّ أُمِّي إِلَيَّ فَتَسْأَلُنِي : مَاذَا يُعَلِّمُكَ أَبُوكَ؟ فَكُنْتُ أَتَهَرَّبُ مِنْ إِجَابَتِهَا...

حَتَّى أَتْقَنْتُ العَرَبِيَّةَ، وَ فَهِمْتُ القُرْآنَ، وَ عَرَفْتُ قَوَاعِدَ الدِّينِ ، فَعَرَّفَنِي أَبِي بِأَخٍ لَهُ فِي الله وَ قَالَ لِي : إِذَا أَمَرَكَ عَمُّكَ بِشَيْءٍ فَأَطِعْهُ ، وَكُنَّا نَجْتَمِعُ نَحْنُ الثَّلاثَةُ عَلَى عِبَادَتِنَا وَ قُرْآنِنَا.

وَاشْتَدَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ قَسْوَةُ دِيْوَانِ التَّفْتِيْشِ، وَزَادَ فِي تَنْكِيلِهِ بِالْبَقِيَّةِ البَاقِيَةِ مِنَ العَرَبِ،

وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامٌ، وَ إِذَا بِعَمِّي هَذَا يَدْعُونِي وَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَذْهَبَ مَعَهُ ، فَقَدْ يَسَّرَ اللهُ لَنَا سَبِيلَ الفِرَارِ إِلَى عُدْوَةِ المَغْرِبِ بَلَدِ المُسْلِمِينَ فَأَقُولُ لَهُ : أَبِي وَ أُمِّي ؟...

فَيُعَنِّفُنِي وَ يَشُدُّنِي وَ يَقُولُ لِي : أَلَمْ يَأْمُرْكَ أَبُوكَ بِطَاعَتِي ؟

فَمَضَيْتُ مَعَهُ صَاغِراً كَارِهاً ، حَتَّى إِذَا ابْتَعَدْنَا عَنِ المَدِينَةِ وَ شَمَلَنَا الظَّلامُ ، قَالَ لِي: اِصْبِرْ يَا بُنَيَّ ... فَقَدْ كَتَبَ اللهُ لِوَالِدَيْكَ المُؤْمِنَيْنِ السَّعَادَةَ عَلَى يَدِ دِيْوَانِ التَّفْتِيشِ. وَخَلَّصْتُ هُنَاكَ إِلَى بَرِّ المَغْرِبِ فَأَصْبَحْتُ العَالِمَ المُصَنِّفَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّفِيعِ الأَنْدَلُسِيَّ ؛ فانْتَفَعَ بِي وَبِتَصَانِيفِي الكَثِيرُونَ...